﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾ [المائدة: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ الله ﷻ جماعةَ المؤمنينَ في الآيةِ السَّابقةِ بِتَقْواهُ وابْتغاءِ القُرُباتِ والجهادِ في سبيله لِيَنالُوا الفَلاحَ؛ سَاقَ بيانُ الله تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ - وكعادته - الحديثَ عن جماعةِ الكافرينَ الَّذين أَعْماهُمْ كِبْرُهُمْ عنِ الإيمانِ بالله، فهؤلاء لن يَنفعَهم ما يُخلِّصونَ به أَنْفُسَهم من عذابِ النَّارِ يومَ القيامةِ، ولو كان أضعافًا مُضاعَفةً ممَّا في الأرضِ من كُنوزٍ وثَرَواتٍ؛ بل مآلُهمُ العذابُ الأليمُ لا مَحالةَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾: فَدَيَ: الفاءُ والدّالُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ كلمتانِ مُتَباينتانِ جدًّا:

فالأُولى: أنْ يُجعَلَ شيءٌ مكانَ شيءٍ حِمًى له، والأُخْرَى: شيءٌ منَ الطَّعام.

فالأُولى قولُكَ: فَدَيتُه أَفْديه، كأنَّكَ تَحْميه بِنَفْسِكَ أوْ بشيءٍ يُعوَّضُ عنه، يقولونَ: هو فِداؤكَ؛ إذا كَسَرْتَ، أي: الفاء، وإذا فَتَحْتَها؛ قَصَرْتَ، يُقالُ: هو فَداكَ.

ويُقالُ: تَفادَى مِنَ الشَّيءِ؛ إذا تَحاماهُ، وانْزَوى عنه، والأصلُ في هذه الكلمةِ ما تقدَّم، وهو التَّفادي: أنْ يَتّقيَ النَّاسُ بعضُهم ببعضٍ، كأنَّه يَجعلُ صاحبَه فداءَ نَفْسه.

وهذا الاتِّقاءُ وحمايةُ النَّفْس بشيءٍ يُعوِّضُ عنها، وهو من الفِداء بكسر الفاء، وهو ما عَنَتْه الآيةُ الكريمةُ في سياقِها[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبرَ الله ﷻ بما أعدَّ لأعدائِه الكُفَّارِ منَ العذابِ والنَّكالِ يومَ القيامة، مُبيِّنًا أنَّه لو أنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فدي).

أحدَهم جاءَ يومَ القيامةِ بِمِلْءِ الأرضِ ذهبًا وبِمِثْلِه؛ ليفْتديَ بذلك من عذابِ اللّه الَّذي قد أحاطَ به إحاطةَ السِّوارِ بالمِعْصَمِ، ما أَفْلَحَ هذا الفِداءُ في إنقاذِ صاحبِه؛ بل لامَنْدُوحةَ عنه ولا مَحيصَ له ولا مَنَاص[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التَّوكيدُ، والشَّرطُ، وتقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ، وأثرُ ذلك في إثْراءِ المعاني:

أفـــادَ نـظـمُ السِّياقِ تهويلَ حـالِ الكافرينَ وتفظيعَه يومَ القيامة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: كلامٌ مُبتدَأٌ مَسوقٌ لتأكيدِ وجوبِ الامْتثالِ بالأوامرِ السَّابقةِ: التَّقْوى، وابْتغاءِ الوَسيلة، والجِهادِ في سبيلِ اللّه، وفيه ترغيبٌ للمؤمنين في المسارَعةِ إلى تحصيلِ القُرُباتِ والمكرُماتِ قبلَ أنْ يَحينَ وقتٌ لا يَنفَعُ فيه نَفْسًا إيمانُها، لم تكنْ آمنَتْ من قبلُ، أوْ كَسَبتْ في إيمانِها خيرًا يَقيها من أنْ تتوسَّلَ بوسائلَ قد تُجزِئُ عن صاحبِها في الدُّنيا، أمَّا في الآخرةِ؛ فشأنٌ آخَرُ لا ينفَعُ معه إلَّا العملُ الصَّالحُ الخالصُ للّه ﷻ.

﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾: أي: لكلِّ واحدٍ منهم لا لجميعِهم؛ إذْ لا يكونُ من تَهْويلٍ للأمرِ وتَفْظيعٍ للحالِ عندما يقعُ عليهم جُملةً واحدةً دونَ إفرادِ كلِّ واحدٍ منهم على حِدَة.

معنى الشَّرطِ في ﴿لَوْ﴾:

"والشَّرطُ في قولِه: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مقدّرٌ بفعلٍ دلَّتْ عليه ﴿أَنَّ﴾؛ إذِ التَّقديرُ: لو ثَبَتَ ما في الأرضِ مِلْكًا لهم، فإنَّ ﴿لَوْ﴾ لاخْتصاصِها بالفعلِ صحَّ الاسْتغناءُ عن ذِكْرِه بعدَها؛ إذا وَرَدَتْ (أنَّ) بعدَها "[2].

﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿مَّا﴾ اسْمُ ﴿أَنَّ﴾ و﴿لَهُم﴾ خبرُها ومحلُّها الرَّفعُ،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/51.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/188.

ويمكنُ أن يكونَ الخبرُ محذوفًا مقدَّرًا مُقدَّمًا، أي: لو ثابتٌ كونُ ما في الأرضِ لهم، ويمكنُ أن يكونَ الخبرُ محذوفًا مُقدَّرًا مُؤخَّرًا، أي: لو كونُ ما في الأرضِ لهم ثابتٌ.

ويمكنُ أنْ يكونَ رُفِعَ على الفاعليَّةِ، والفعلُ مُقدَّرٌ بعد لو، أي: لو ثَبتَ أنَّ لهم ما في الأرض.

ولكنَّ الوجهَ الأوّلَ أصحُّ؛ فإنَّ عدمَ التَّقديرِ، والجَرْيَ على الظَّاهرِ أَوْلى منَ التَّقديرِ ومُخالفةِ الظَّاهر؛ إذْ لا مُسَوِّغَ له.

﴿جَمِيعًا﴾: توكيدٌ للموصول ﴿مَّا﴾ أو حالٌ منه.

﴿وَمِثْلَهُۥ﴾: معطوفٌ على ﴿مَّا﴾ منصوبٌ.

﴿مَعَهُۥ﴾: ظرفٌ وقعَ حالًا منَ المعطوف، والضَّميرُ (الهاءُ) راجعٌ إلى ﴿مَّا﴾ الموصول، وفائدتُهُ حينئذٍ: التَّصريحُ بفرَضِ كَيْنونَتِهما لهم بطريقِ المَعيَّة، لا بطريقِ التَّعاقُبِ تحقيقًا لكمالِ قُبْحِ الأمرِ وفَظاعتِه، معَ ما فيه من نوعِ إشعارٍ بكونِهما شيئًا واحدًا، وتمهيدًا لإفرادِ الضَّمير الرَّاجعِ إليهما[1].

التَّعليلُ، وجوابُ الشَّرطِ، وتأخيرُ ماحقُّه التَّقديمُ، وأثَرُ ذلكَ في تَجْليةِ المعنَى:

أفادَ نَظْمُ السِّياقِ بأركانِه الواردةِ تأكيدَ عذابِ الكافرين

﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾: مُتعلِّقٌ بما تعلَّق به خبرُ ﴿أَنَّ﴾، وهو الثَّباتُ المقدَّرُ في لهم - كما تقدَّم - واللَّامُ في ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ لتعليلِ الفعلِ المُقدَّر، أي: لو ثبتَ لهم ما في الأرضِ لأَجْلِ الافْتداءِ به لا لأَجْلِ أن يَكْنِزوه أو يَهَبُوه، وإفرادُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿بِهِۦ﴾ مع أنَّ المذكورَ شيئانِ هما: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿وَمِثْلَهُۥ﴾: إمَّا على اعْتبارِ الضَّميرِ راجعًا إلى ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقط، ويكونُ قولُه: ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ معطوفًا مُقدَّمًا من تأخير، ويكونُ أصلُ الكلام: لو أنَّ لهم ما في الأرضِ؛ لِيَفْتَدُوا به، ومِثْلَهُ معه، ودلَّ على اعتبارِه مُقدَّمًا من تأخيرٍ: إفرادُ الضَّميرِ المجرورِ بالباء ﴿بِهِۦ﴾.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/49.

بلاغةُ التَّقديم:

واللَّطيفةُ البلاغيَّةُ في هذا التَّقديم: تعجيلُ اليَأْسِ مِنَ الافْتداءِ إليهم، ولو بمُضاعَفَةِ ما في الأرض.

وإمَّا أن يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾؛ لأنَّ ذلكَ المِثْلَ قد شَمِلَ ما في الأرضِ وزيادةً، فلم تَبْقَ جَدْوى لِفرَضِ الافْتداءِ بما في الأرض؛ لأنَّه قد انْدرَجَ في مثلِه الَّذي مَعَه.

ويجوزُ أن يُجرَى الضَّميرُ مجْرَى اسْمِ الإشارةِ في صِحَّةِ اسْتعمالِه مُفردًا، معَ كونِه عائدًا إلى مُتعَدِّدٍ على تأويلِه بالمذكور، وهذا شائعٌ في اسْمِ الإشارة، كقولِه تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة: 68] أي: بين الفارِضِ والبِكْر،[1] وتقديرُه هنا: "لِيَفْتَدُوا بذلك، ويجوزُ أنْ يكونَ الواوُ في ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾ بمعنَى: (معَ)، فيَتوحَّدُ المرجوعُ إليه"[2].

وقولُه: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مُتعلِّقٌ بالافْتداءِ أيضًا، أي: لو أنَّ ما في الأرضِ ومِثْلَه ثابتٌ لهم؛ لِيَجعلُوه فِديةً لأنْفُسِهم من العذابِ الواقعِ يومئذٍ؛ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ﴾ ذلك، وهو جوابُ ﴿لَوْ﴾، وترتيبُه على كَوْنِ ذلكَ لهم لأَجْلِ افْتدائهم به من غيرِ ذِكْرِ الافْتداء، بأنْ يُقالَ: وافْتدوا به، مع أنَّ الرَّدَّ والقَبولَ إنَّما يترتَّبُ عليه لا على مباديه، وذلكَ للإيذانِ بأنَّه أمرٌ مُحقَّقُ الوقوعِ غنيٌّ عنِ الذِّكر.

ولكنْ هل يَملِكونَ القُدرةَ على تنفيذِ هذا الفَرَضِ في الافْتداءِ بما في الأرضِ ومثلَهُ معه؟

إنَّهم لا يَملِكونَ القُدرةَ على ذلكَ وخاصَّةً أنَّهم في ذاكَ الموقفِ العَصيبِ ما يَملِكونَ من قِطْمير، ولكنَّه لإظهارِ المبالغةِ في تحقيقِ الرَّدِّ وتَخْييلِ أنَّه وقعَ قَبْلَ الافْتداء.

وهذه الجملةُ الامْتناعيَّةُ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ﴾ خبرُ ما تقدَّمَ في صَدْرِ الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والمرادُ منها: تمثيلُ لُزومِ العذابِ لهم، واسْتحالةِ نجاتِهم منه بوجْهٍ من الوُجوهِ المُحقَّقةِ والمَفروضَة.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تَصريحٌ بما أُشيرَ إليه بعدَمِ قَبولِ فِدْيَتِهم، لزيادةِ تَقريرِه وبَيانِ هَوْلِه وشِدَّةِ وَطْأَتِه.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/188 - 189.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/610.

والواوُ وجُملتُها في محلِّ نصب حال، أوِ الرَّفع عَطْفًا على خَبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهو: ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾، أوْ هي عَطْفٌ على: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، فلا محلَّ له كالمَعطوفِ عليه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافْتداء والاتِّقاء:

"الوِقايةُ: حفظُ الشَّيء ممَّا يُؤذيه ويَضُـرُّه، يُقالُ: وَقَيْتُ الشَّيءَ أَقيهِ وِقايةً وَوِقاءً، قالَ تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾ [الدُّخان: 56].

ويُقالُ: اتَّقَى فلانٌ بكذا؛ إذا جَعلَهُ وِقايةً لِنَفْسِه، كما قالَ تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزُّمر: 24]، تنبيهٌ على شدَّةِ ما ينالُهم، وأنَّ أجْدَرَ شيءٍ يَتَّقونَ به منَ العذابِ يومَ القيامةِ هو وُجوهُهم"[2].

وقدْ تقدَّمَ في معنَى ﴿لِيَفْتَدُواْ﴾ في شرحِ المفرداتِ: أنَّ الافْتداءَ: جَعْلُ شيءٍ مكانَ شيءٍ حِمًى له، وحمايةُ النَّفْس بشيءٍ يُعوِّض عنها.

وهذا المعنَى أوْثَقُ بِعُرَى النَّصِّ القُرآنيِّ وسياقِه الجَليلِ من مُجرَّدِ الوِقايةِ، ولو بوَجْهِ ذاكَ الكافرِ أوْ بعضوٍ من أعضائه، فالمآل واحدٌ، وهو العَذابُ الَّذي ينالُ جميعَ جَسَده.

وأمَّا العِوَضُ بالمالِ أو بالأرضِ وما عليها، ممَّا كان في الحياةِ الدُّنيا لذاكَ الكافرِ؛ فهو مَنظورٌ مُتحقق في معنَى الافْتداء.

ولذلكَ اسْتخدمَ البيانُ الإلهيُّ الفعلَ: ﴿لِيَفْتَدُواْ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّه أوْقعُ أثَرًا، وأجْلَى معنًى في حديثِ النَّصِّ القرآنيِّ، في إيرادِه للمبالغةِ في تصويرِ مَشْهدِ الكافرِ، وهو يُريدُ أنْ يفتديَ نفسَه من دُخولِ النَّارِ وعذابِها، ولو بما في الأرضِ جميعًا ومِثْلِه معَه، ولنْ يكونَ لهُ ذلك.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/50 - 51.
(2) الرَّاغب، المفردات: (وقى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 9 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-61-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 9 : سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-61-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»